أبو راس الناصر المعسكري و قضايا عصره من خلال مؤلفاته

أد. بوشنافي محمد

قسم العلوم الإنسانية

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

جامعة سيدي بلعباس

Abstract

During the Ottoman period Algeria has known an unknown number of scientist in various disciplines of science. Students rushed to them to learn and receive diplomas.

Among his greatest scientist of that time on site "El Hafid Abu Ras Ennasir El Mouascari", and that the works gives us undetermined information about his life, his works, his relationship with his environment and especially the scholars, students and sovereign country. This great scholar has left enormous comments on several areas of life such as political, intellectual, social.

مقدمة:

أنجبت الجزائر خلال العهد العثماني عددا لا يحصى من العلماء الذين ذاع صيتهم في كل أرجاء البلاد الإسلامية، و تخصصوا في شتى أصناف العلوم العقلية و النقلية حتى أضحى طلبة العلم يتوافدون من شتى الأصقاع ينهلون من علومهم و يتحصلون منهم على الإجازات العلمية.

و من بين هؤلاء العلماء الذين أطنبت كتب السير و التراجم في الحديث عنهم نذكر الحافظ أبو راس المعسكري، الذي خلف لنا رصيدا كبيرا من المؤلفات في علوم عديدة، كما نجد في طياتها مواقفه من كثير من القضايا التي ميزت عهده سواء على المستوى المحلي أو الخارجي، خاصة و أنه عاصر فترة هامة وخطيرة من تاريخ البلاد الإسلامية، تبرز في الضعف الذي بسط نفوذه و الصراعات و الاضطرابات[1]، غير أنها في نفس الوقت شهدت بعض الإنجازات و الانتصارات، و لم يقف أبو راس موقف المتفرج منه بل نجده يبدي موقفه من هذه القضايا المصيرية بكل وضوح:

أ– موقفه من العثمانيين:

إذا كان بعض العلماء و شيوخ الزوايا قد ناصبوا هؤلاء العداء، فإن أبا راس يساند ويدعم حكمهم و يمنحه الشرعية، بل و ينتقد كل الحركات المناوئة لهم، و يظهر أن مباركته للنظام السياسي القائم آنذاك لم يكن لدوافع مادية أو مصالح شخصية، خاصة و أن أبا راس عاش طول حياته فقيرا، و إنما اعترافا بما قدمه هؤلاء للجزائر منذ مجيئهم

إليها و دفاعهم عنها ضد كل الأخطار التي هددتها، فهو يؤرخ لمجيئهم و يطبعه بنوع من الشرعية، حيث يؤكد أن ذلك تم استجابة لطلب الاستنجاد الذي أرسله السكان إلى السلطان العثماني سليم الأول (1512– 1520) " و لما رأى العالم الصالح الإسبانيين على سواحل المغرب الأوسط كتب إلى السلطان سليم العثماني، فبعث جندا من الترك نظير خير الدين بن حسن باشا، فاستوطنوا الجزائر التاريخ المار(أي923هـ) وجعلوها دار ملكهم و كرسي عملة المغرب و حاربوا النصارى في برج المرسى حتى فتحوه سنة ثمان و أربعين من المائة العاشرة"[2].

ففي نظره أن تلك الثورات التي اندلعت ضد العثمانيين لا تعدو أن تكون حركات تمردية هدفها زعزعة نظام الحكم و خلق الفتنة، و قد دفعه موقفه هذا إلى كتابة مؤلفه المعادي لثورة درقاوة و الموسوم ب"درء الشقاوة في حرب درقاوة".

ب– قضية تحرير وهران: نالت هذه القضية و مسألة خضوعها للاحتلال الإسباني اهتمام العلماء–أو الحزب الديني– الذين أصبحوا يحرضون رجال السلطة على تجهيز الجيوش و توجيهها لتخليص هذا الثغر من يد "الكافر"، فنجدهم يمجدون و يخلدون بكتاباتهم النثرية و الشعرية مآثر الفاتحين، سواء خلال الفتح الأول في عام1708 أو الثاني في 1792 على يد محمد الكبير باي وهران.

كتب أبو راس عن هذه القضية، فسرد علينا كيف سقطت في يد الإسبان و دور سلطان تلمسان في تسهيل احتلالها[3]، كما خصص حيزا هاما من كتاباته للحديث عن القبائل التي خضعت للمحتل الإسباني، و بين دور العلماء في تحريض هؤلاء على التمرد ضد الإسبان "خاطب الآفاق على ألسنة الرفاق، بني عامر و زناتة محرضين لهم على الإغاثة، يعيرونهم بالدخول تحت الكافر و افتراشهم النبات الحرائر فكان ذلك ما قرع أسماعهم و أطرق رعايهم بطبع القلوب"[4].

و يبدي أبو راس الناصر حماسة عندما يتحدث عن فتحها الأول و الثاني فيخلد ذكرى الداي محمد بكداش "و قولي محمد باكداش هو إمام جامع المجادة الأزهر، و بدر مطالع السعادة الأبهر، أبو الفتوحات الربانية القائم بصدقات الدولة العثمانية...و ما أحب الإمارة إلا لأجل القتال"[5]، لقد اعتبره صاحب نعمة عظيمة على الجزائر، ألا و هي فتح وهران " وقد اجتمعت خصال الخير في محمد بكداش دولاتي و قد أتحف بالنعم و السعادة و الرضوان و أي نعمة أعظم من فتحه لثغر وهران الذي فقدوه و عظم داؤه و منع فناؤه و حمت أرجاءه"[6].

ج– موقفه من ثورات الطرق الدينية:

من القضايا التي أثارت حفيظة العلماء و منهم أبو راس تلك المتعلقة بالقبائل المتعاملة مع الإسبان، أو ما اصطلح على تسميتهم بالمغاطيس، الذين استخدمهم الإسبان للتجسس على القبائل التي استقرت في ضواحي وهران مقابل مكاسب دنيوية زائلة، مما دفعهم إلى التخلي عن بني جلدتهم و بيعهم لهؤلاء بأبخس الأثمان "و رغب

الأعراب في عرضه الفاني حتى انحاز إليه كل رقيق دين على نفسه جاني، مثل قيرة و حميان و بني عامر من كل ضعيف الإيمان و صاروا شيعته، فقويت بهم شوكته و كانوا عيونه على جميع المسلمين"[7]. لقد اتفقت فتاوى علماء معسكر على خروج هؤلاء عن الملة وبالتالي فإنهم يعاملون كما يعامل الإسبان.

ويعتبر أبو راس هؤلاء المغاطيس بأنهم كانوا عاملا معرقلا و محبطا لكل محاولات المقاومة التي كانت تبرز في المنطقة، كانوا حسبه يخوفون السكان بقوة الإسبان و ضخامة عتادهم الحربي "و لاسيما أخبار المرجفين بأن النصارى أهل جنود و آلة و بنود، و عددهم لا ينقطع و رأيهم لا ينصدع، ليكون ذلك دائما بالدخول تحت ذمة الكافر المخذول"[8].

د– تطلعه إلى فتح الأندلس:

جعل فتح وهران الثاني أبا راس يتطلع إلى أن يبادر حكام المسلمين إلى استرجاع الأندلس "و ذلك لما رأيت تبسم الدين بثغر وهران بعد عبوسه، و استبدال النعيم بعد بؤسه، واسترداده بالقنا و النيل، سنة الله التي قد خلت من قبل"[9]. و في نفس الوقت يظهر تحسرا على تقاعس المسلمين، ولاسيما العلماء، عن حث أولياء الأمر على استرجاعه، فلما كان بالقاهرة في عام 1226هـ التقى بشيخ الأزعر، و أثناء الحديث عن محنة الأندلس خاطبه شيخ الأزهر قائلا "الحمد لله الذي عوضنا به القسطنطينية"، مما جعل أبا راس يتظاهر أمامه بحد الله، غير انه علق على ذلك بقوله "إن لم تكن إبلا فمعزى"[10].

هـ– موقفه من الخلاف الحدودي الجزائري– المغربي:

من المعلوم أن الحدود الغربية للجزائر كانت دائمة التعرض للاعتداءات المغربية، حيث حاول سلاطين المغرب جاهدين للاستيلاء على أجزاء من الغرب الجزائري، لكن العثمانيين نجحوا في صدها و صيانة الحدود الغربية.

و كان لعلماء الجزائر آنذاك موقف من هذه القضية، فإذا كان الكثير منهم قد فضل مغادرة الجزائر إلى المغرب خاصة خلال القرن السادس عشر لما فشلت حملة السلطان السعدي، إذ لما قفل راجعا إلى بلاده رافقه عدد كبير من علماء تلمسان الذين نالوا الحظوة و الاحترام هناك.

و كان أبو راس قد زار المغرب الأقصى في عهد السلطان سليمان الذي أكرمه أيما إكرام، فكان ذلك دافعا لأن يثني أبو راس على هذا السلطان، كما كانت له معه مساءلات حول عدة قضايا، نجح أبو راس في حلها، فنال بذلك إعجاب السلطان و كرمه المادي.

إلا أن السلطان سأله يوما سؤالا محرجا و مضمونه حد الحدود الشرقية للمغرب الأقصى، فرد عليه أبو راس بجواب فيه كثير من الذكاء و البراعة، إذ استند إلى قول ابن خلدون حين حددها بوجدة، ثم أردف جوابه بقوله "و حدد

ذلك الحد أول القرن الثاني عشر، مع جدك السلطان مولاي إسماعيل و أتراك الجزائر"، غير أن السلطان أخبره بأن حده التافنة، مما دفع أبا راس إلى السكوت خوفا من غضب السلطان و نقمته[11].

و– الحملة الفرنسية على مصر:

كان أبو راس على اطلاع واسع بأحداث عصره، متأثرا لما آل إليه حال المسلمين من ضعف و انحطاط، حتى أضحوا مطمعا لكل محتل، و ذلك ما تعرضت له مصر في عام1798، لما قاد نابليون بونابرت حملته الشهيرة ضدها، و يظهر أن اطلاع أبا راس على وقائع المشرق العربي يرجع إلى زيارته للمنطقة مرتين في حياته.

يقدم لنا في كتابه "الحلل السندسية" كثيرا من التفاصيل حول هذه الحملة، غير أنه يسكت عن ذكر المصادر التي استقى منها معلوماته باعتبار أنه كان متواجدا بمصر لما قاد نابليون حملته عليها، و عموما يذكر تاريخ الحملة و الذي يحدده بمحرم من عام 1213هـ، إذ يذكر بأن الفرنسيين استولوا في طريقهم على مالطا التي كانت لفترة طويلة من الزمن مقرا لفرسان القديس يوحنا، هؤلاء الذين قادوا حملات كثيرة ضد الجزائر، و يذكر أن الفرنسيين نزلوا بالإسكندرية ثم توغلوا نحو الداخل في ظل مقاومة ضعيفة للمماليك بقيادة مراد باشا، فانهزموا في أول مواجهة أمام الفرنسيين و قتل منهم الكثير و آخرون غرقوا في نهر النيل.

و عند حديثه عن نابليون يصفه بأبشع الأوصاف فيقول عنه "و دخلوا –أي الفرنسيين– مصر مع طاغيتهم بنبارت (لعنه الله و أخزاه) أول الربيع النبوي من السنة المذكورة–أي 1213هـ– فقتلوا من وجدوا بها من الغز، و استباحوا و هدموا من المدينة كل بناء يتوقع منه سوء..."[12].

كما يتأسف على ما لحق الأزهر من تدنيس و تخريب، حيث أن الفرنسيين عاثوا فيه فسادا "و دخلوا جامعها الأعظم فأهين أشد الإهانة وشتتوا خزائن الكتب التي به و داسوها بالأرجل و حواف الخيل(إن لله و إن إليه راجعون)"[13].

و يطنب أبو راس في الحديث عن إجراءات الفرنسيين في حق السكان من خلال نهب ممتلكاتهم و أموالهم و إرهاقهم بالضرائب، كما يعطينا صورة عن خط توسعاتهم في مصر ثم في بلاد الشام، و السهولة التي وجدوها أمامهم في ظل مقاومة شبه منعدمة للمماليك الذين وقفوا خائبين أمامهم، و لولا تدخل الإنجليز لأصبحت كل المنطقة فرنسية[14].

ز– موقفه من الحركة الوهابية:

زار أبو راس الحجاز في عام1226هـ/ 1811م للمرة الثانية، و صادف ذلك انتشار الحركة الوهابية في منطقة الحجاز، و هي حركة أسسها محمد بن عبد الوهاب التميمي، حيث اتخذت أبعادا دينية من خلال دعوتها إلى محاربة البدع كالتبرك بالأولياء و الأضرحة، كما دعت إلى العودة إلى أصول الدين الصحيحة القائمة على

الكتاب و السنة، غير أنها سرعان ما تحولت إلى حركة سياسية مناوئة للعثمانيين لما تبناها محمد بن سعود حاكم منطقة الدرعية و أخذت تتوسع في المنطقة.

كان لأبي راس موقف من هذه الحركة، إذ يذكر أنه التقى مع تسعة من علمائها و دخل معهم في مناظرات حول كثير من القضايا الفقهية و التعبدية، دون السياسية، و من ذلك التسبيح بالسبحة و هدم الأضرحة، وعلى ما يظهر فإنه استطاع إقناعهم بالحجة الدامغة، من خلال نصوص قرآنية و سنية، مما جعلهم يتراجعون عن كثير من معتقداتهم.

كما أنه ناقشهم في مذهبهم من خلال قضية قصر الصلاة، فيذكر "فقلت: إن الإمام أحمد بن حنبل عنده نية إقامة أربعة أيام صحاح تقطع حكم السفر، فقالوا: عندنا "القصر" لا ينقطع ما دام السفر، فعلمت أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع، و أما في العقائد فهم على ما عليه الإمام أحمد"[15].

ح– قضية شرب القهوة و الدخان:

من القضايا الاجتماعية التي شغلت بال العلماء المسلمين عامة، و الجزائر خاصة، قضية تناول القهوة و الدخان، فتناولوها من جانب الحلال و الحرام و اختلفت فتواهم تجاهها، فمن الذين حرموها أحمد المقري و أحمد البوني و عبد الكريم الفكون الذي خص الموضوع بمؤلف سماه "محدد السنان في نحور إخوان الدخان"، و تجدر الإشارة أن الظاهرة انتشرت بشكل ملفت للانتباه خلال تلك الفترة بعدما استقدمها العثمانيون معهم.

أما أبو راس فناقش الموضوع مع علماء مدينة الجزائر بالجامع الأعظم المالكي، فاعتمد على مجموعة من فتاوى العلماء إذ لم يجد نصا شرعيا يحرم شرب القهوة، و بالتالي يدعو إلى اجتنابها لأسباب صحية، في حين يرى في الدخان "أنه سفه و شمه... مندرج ضمن المفسدات للعقول" "وفيه إضاعة للمال..."، فيدعو إلى تركه حتى و إن غاب النص الشرعي لتحريمه[16].

و خلاصة القول، فإن أبا راس لم عالما منغلقا على نفسه بل كان مطلعا على كل قضايا و هموم المسلمين متأثرا بها، مما جعله يخلدها في كتاباته التي تشكل أهم المصادر لدراسة أوضاع الجزائر و بلاد العالم الإسلامي خلال الفترة العثمانية.

الهوامش:

1– عرف النظام السياسي الجزائري في أواخر العهد العثماني سلسلة من الاضطرابات و عدم الاستقرار فمن عام 1798 إلى عام 1830 حكم الجزائر ثمانية دايات، قتل منهم ستة دايات و لم ينج إلا اثنان، هما الداي علي خوجة و الداي حسين باشا، لمزيد من التوضيح أنظر: الزهار، أحمد الشريف، مذكرات نقيب أشراف الجزائر (تحقيق المدني أحمد توفيق)، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

2– أبو راس محمد بن الناصر المعسكري، الحلل السندسية في شأن وهران و الجزيرة الأندلسية (تحقيق بنعمر سليمة)، الطبعة الأولى، دار صنين للطباعة و النشر، 2002، ص 510.

3– أبو راس محمد بن الناصر المعسكري، عجائب الأسفار و لطائف الأخبار (تقديم و تحقيق غالم محمد)، الجزء الأول، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية و الثقافية، وهران 2005، ص ص 123– 132.

4 – أبو راس محمد بن الناصر المعسكري، الحلل...، ص ص 510– 511.

5– نفسه.

6 – أبو راس محمد بن الناصر المعسكري، عجائب...، ص 167.

7 – أبو راس محمد بن الناصر المعسكري، الحلل...، ص 256.

8– نفس المصدر و الصفحة.

9– نفسه، ص 197.

10– نفسه، ص 451.

11– الجزائري، محمد أبو راس المعسكري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته (تحقيق وضبط وتعليق محمد بن عبد الكريم)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

12– أبو راس محمد بن الناصر المعسكري، الحلل...، ص 385.

13– نفس المصدر و الصفحة.

14– المصدر نفسه، ص ص 386– 387.

15– الجزائري، محمد أبو راس المعسكري، فتح الإله...، ص ص 118– 119.

16– الجزائري، محمد أبو راس المعسكري، فتح الإله...، ص 159.